

دفاعاً عن الحرية... الحرية دائماً

مقال في جريدة "الأخبار" ١٩٧٣

عندما تكون الحرية في خطر يكون الوطن كله في خطر.

وقد خاض اللبنانيون، عبر تاريخهم الطويل، معارك كبيرة لا حصر لها من أجل حريتهم، لأنهم كانوا، في هذه المعارك، يدافعون بالأساس، عن وطنهم، عن وجودهم.

في هذه الأيام، يجد اللبنانيون أنفسهم، مرة ثانية، في قلب معركة جديدة من أجل الحرية.

فالحرية، لا تتجزأ، فإما أن تكون هناك حرية أو لا تكون، ونصف الحرية هو فقدان للحرية،

لماذا الحرية في خطر؟

عندما تفتش السلطة عن مبرر لتقييد الحرية باسم الدفاع عن الوطن تصبح الحرية في خطر ويصبح الوطن، كذلك في خطر.

فالدفاع عن الوطن يحتاج إلى الحد الأقصى من الحرية، حرية العمل، والتعبئة، وبذل الجهد، من أجل جعل كل القوى الوطنية كتلة واحدة في الدفاع عن الوطن.

لقد أعلنت حالة الطوارئ، بعكس ما يقتضيه منطق الأشياء، في كل مرة كانت تواجه فيها البلاد أخطاراً خارجية إثر الاعتداءات الإسرائيلية. وفي هذه المرة، أيضاً، لم تُعلن حالة الطوارئ بسبب الأحداث التاريخية، بل بحجة أن هناك تحركات خارجية، من البحر، قوى عدوانية إسرائيلية تهدد البلاد.

لو كانت السلطة في إعلان حالة الطوارئ تبتغي تعبئة القوى لصد العدوان الخارجي، لكان ذلك أمراً مفهوماً وموضع تقدير. أما أن تعلن حالة الطوارئ، خلال العدوان الخارجي، من أجل خنق الحرية، حرية الحركة والعمل، حرية الكتابة والنشر، أي منع تعبئة الجماهير الشعبية وتوعيتها، وكبت نشاط القوى الوطنية، فهذا هو، بالتحديد منطق العداء للحرية. وفي هذا بالذات، مكنم الخطر على الحرية وعلى الوطن.

ماذا أعطتنا الأسابيع الأخيرة من دروس؟

لقد فرضت، على البلاد، بموجب قانون الطوارئ، قيود، ما زال قسم أساسي منها قائماً، حتى بعد إلغاء حالة الطوارئ. وهذه القيود تناولت بالأساس، ولا تزال، قوى سياسية معينة، هي القوى الوطنية، وتناولت، كذلك، الصحافة، وبصورة خاصة، الصحافة الوطنية.

إن للسلطة، التي فرضت وتفرض هذه القيود، منطقتها، فهي تريد أن تحتكر الحرية لها ولمن يمثل وجهة نظرها. وتريد أن تحجب بقدر ما تستطيع، هذه الحرية عن معتبرهم، في جانب آخر من الموقف، خصوصاً لها ولسياستها.

إلا أن من حقنا أن نرفض هذا المنطق الذي تفتش السلطة عن مبرر للإقناع به. فالديمقراطية تفترض وجود مواقف واتجاهات وآراء مختلفة متعارضة. وتفترض وجود الحرية للذين يعبرون عن هذه المواقف والاتجاهات والآراء، ويمثلونها. وإلا فإن أي حديث عن وجود ديمقراطية، هو حديث بدون معنى، حديث خرافة. إذ أن الديمقراطية في نظام ديمقراطي، إما أن تكون موجودة أو أن تكون مفقودة. وإذا فقدت، يتحول النظام الديمقراطي إلى نقيضه، إلى الدكتاتورية. فالصيف والشتاء لا يمكن أن يلتقيا على سطح واحد .

وبالنسبة للبنان، لم تكن الديمقراطية والحرية عطاءً من أحد. إنها مكسب تحقق بالنضال عبر أجيال طويلة. ثورات بكاملها قامت من أجل تكريس الديمقراطية. ومعارك عديدة، خاضها شعبنا لكي ينتصر لحرية.

وأصبحت الديمقراطية والحرية جزءاً عزيزاً من تقاليد شعبنا. ولذلك فلن يكون من السهل على أي كان، مهما بلغت قوته، ومهما استبدت به الأهواء، أن ينزع من شعبنا هذا التقليد الذي يتمسك به ويدافع عنه حتى الاستشهاد.

على هذا الأساس نحن نرفض الآن، كما رفضنا دائماً أي تبرير لتقييد الحرية، وكنا دائماً ضد إعلان حالة الطوارئ، أية كانت الظروف.

وعلى هذا الأساس رفضنا دائماً الرقابة على الصحافة، أياً كان شكلها. فالرقابة هي قيد على الحرية. وكل قيد على الحرية هو خنق لها، هو اعتداء عليها، يتطلب النضال ضده من أجل تحطيمه.

إلا أن أخطر ما في الأمر أن الصحافة، في الأسابيع الأخيرة، خاضت، من أجل حريتها، معركتين: معركة مع السلطة ومعركة مع ذاتها.

ومفهوم أن تخوض الصحافة مع السلطة معركة حريتها. فلها في هذا المجال تقاليد مجيدة. أما أن تخوض معركة مع ذاتها فهذا هو الأمر الغريب الخطير. ففي جمعيتين عموميتين متواليتين لنقابة الصحافة ارتفعت أصوات من عدد، نستغرب، أن يكون بهذا الحجم، تطالب باستمرار الرقابة.

نحن لا نفرق بين شكل من الرقابة وشكل آخر. ونرفض أي مبرر لها. فالرقابة، حتى الذاتية منها، هي حد من الحرية لا نرى أي مبرر له، إلا الخضوع لمشيئة السلطة. وعندما يكون الخضوع يكون القيد، وعندئذٍ ينشأ الخطر على الحرية وعلى الديمقراطية، بقوة السلطة، عن فريق من الاتجاهات والمواقف من أجل فريق يتمتع بقوة القمع والإكراه وبقوة القانون الذي يسنّه لمصلحته.

إن الذي يطالب، هكذا في وضوح النهار، وأمام كل الناس، بجرأة، بالقيود على نفسه، هو إنسان يفترق إلى الحرية في ذاته، إنه لا يستحق الحرية.

إلا أن الصحافة، عبر تاريخها المجيد، لم تهن مرة لكي يسهل الهوان عليها، بل قاومت بصلابة وعناد، كل أشكال القيود التي كانت تفرض عليها، وخرجت من كل هذه المعارك منتصرة. وهي ستنتصر الآن، لأن قضية الحرية التي تكافح من أجلها، هي قضية الحرية لكل اللبنانيين، هي قضية الديمقراطية للبنان.

وفي الدفاع عن الحرية والديمقراطية تتجند اليوم في لبنان قوى كبيرة قادرة.